

تفحص وتعليق

أسبوع الجاحظ

لمندوب الرسالة

بقية المنشور في العدد الماضي

اليوم الرابع

كتابا الحيوان، والبيان والتبيين هما أهم ما للجاحظ من الآثار التي وصلتنا، والتي انتفع بها الكتاب والأدباء، ولقد كان اليوم الرابع ميعاداً للقول في هذين الأثرين الكبيرين، وكان درس الحيوان منوطاً بالأستاذ، كراوس، وكان الكلام في البيان والتبيين على الأستاذ مصطفى السقا.

وقد تكلم الأستاذ كراوس عن الحيوان كلاماً مستفيضاً فوضح غرضه وأهميته، واهتم كثيراً بتحقيق الصلة بينه وبين كتاب الحيوان لأرسطو فقال: إن أبا منصور البغدادي قد ذكر أن الجاحظ لم يعمل شيئاً إلا أن سلخ معاني كتاب الحيوان لأرسطو، ثم ضم إليه ما ذكره المدائني من حكم العرب وأشعارها في منافع الحيوان، ولكن البغدادي هذا كان يظعن على الجاحظ، وكان كثير التيل منه، فقوله قول خصم لا يصح أن قبله على علته، ونحن وإن كنا نعتقد أن الجاحظ قد اتصل بالثقافة اليونانية ووقف على آراء أرسطو في الحيوان، إلا أننا نعتقد أنه ألف كتابه ليعارض كتاب أرسطو، وليقيم الدليل للشعوية على أن العرب أصحاب علم ومعرفة كسائر الأمم، وقد أشار الجاحظ إلى ذلك إذ يقول في مقدمة الحيوان: «وهذا كتاب تستوى فيه رغبة الأمم، وتشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربياً أعرباً، وإسلامياً جماعياً، فقد أخذ من طرف الفلسفة، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة، وأمرك بين علم الكتاب والسنة، وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة، ويشتهيه الفتيان كما تشتهيه الشيوخ، ويشتهيه الفانك كما يشتهيه الناسك، ويشتهيه اللاعب كما يشتهيه المجد، ويشتهيه الغفل كما يشتهيه الأريب».

ولذلك كان الجاحظ يهتم كثيراً بحشد أشعار العرب

وأقوالهم وحكمهم في الحيوان، كما كان يهتم بالسخر من أقوال صاحب المنطق والضحك منها، فالبغدادي قد غبن الجاحظ وتجننى عليه وتنقصه بغير حق.

وتكلم الأستاذ السقا من بعد ذلك عن البيان والتبيين فقدم بين يدي الموضوع كلاماً طويلاً يتصل بشخصه أكثر مما يتصل بأمر الكتاب، فذكر أيامه في دارالعلوم وهو طالب، وقال: إنه كان يكره البيان والتبيين ويستثقله وينفر منه، حتى حبه إلى نفسه نصيحة أستاذ مخلص، فأقبل عليه وانتفع به في ثقافته الأدبية، وبلغ من إعجابه به أن كان يعاود قراءته، ثم عرض لموضوع الكتاب وذكر أبوابه وفصوله، وتكلم في أسلوبه وطريقته وأفرغ عليه كثيراً من الثناء والتعجيد، ومن العجب أنه ذكر تعريف الإنسان الذي نقله الجاحظ عن أرسطو فقال: إنه الحي الميت!! وقد سمعناه يعيده ثانية بهذا النص، وإنما هو الحي الميت على ما نعرف، ولكنه يطبق التعريف كما جاء محرفاً في الكتاب!!

اليوم الخامس

وكان القول فيه للأستاذين إبراهيم مصطفى وأحمد الشايب، وكان موضوع الكلام للأستاذ إبراهيم مصطفى عن «دعاية الجاحظ»، وقد التبست الدعاية بالدعاية على السامعين، فانتظروا من الأستاذ أن يفيض عليهم من فكاهات الجاحظ ونوادره ولكنهم دهشوا إذ رأوه لا يمس ذلك ولا يتقرب إليه، فجأوا باللوم العنيف على الأستاذ، وقالوا: إنه أهمل موضوعه وخرج عليه، وما كان مبعث هذا كله إلا تلك النقطة، الخبيثة التي أهملتها يد الطابع، فأساء إلى الأستاذ وأساء إلى السامعين! وقد ابتدأ الأستاذ القول في دعاية الجاحظ بما كان بينه وبين أبي هفان إذ قيل لأبي هفان: لم لاتبهو الجاحظ وقد ندد بك وأخذ بمخنتك! فقال: أمثلي يخدع عن عقله ١٢ والله لو وضع رسالة في أرنبه أنني لما أمست إلا بالصين شهرة، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت في ألف سنة!

وعلق الأستاذ على هذه النادرة فقال: ونحن إذا تأملنا هذه النادرة نجد أن أبا هفان الشاعر قد تراجع أمام الجاحظ النائر، أو بالأحرى نجد الشعر قد انهزم أمام النثر، ذلك لأن

لم يتزوج ولم يؤكد علاقته بالمرأة، ولكنه قد دافع عنها واكبر من شأنها، وله كتاب «الخرائر والآماء» كتبه في مناصرة الآماء والثناء عليهن وتفضيلهن على الخرائر (١)

ثم تكلم عن أسلوب الجاحظ بما هو معروف، وقال إنه لم يؤثر في أحد من بعده تأثيراً فنياً، وإن ابن العميد الذي كان يتعصب للجاحظ، ويلقب في السنة الأدباء بالجاحظ الثاني لم يكن له من خصائص الجاحظ شيء، حتى القاضي الفاضل الذي يقول في كلام له: أما الجاحظ فما منا معاصر الكتاب إلا من دخل من كتبه الحار، وشن عليها الغار، وخرج على كتفه منها كاره، لا نعرفه قد تأثر بالجاحظ في قليل ولا كثير (٢)، ثم أخذ يقارن بين الجاحظ وبين المبرد في طريقته وأسلوبه، ولم ينس ثعلباً في هذه المقارنة... و انتهى بعد ذلك إلى القول بأن الجاحظ كان داعية كبيراً، قد استطاع أن يتصل بالجمهور إلى حد بعيد، وأن يؤدي لنفسه وللمعتزلة من هذه الناحية شيئاً كثيراً، فكان مثله في ذلك مثل الصحنى الماهر في أيامنا الحاضرة (٣)

وقام من بعد ذلك الأستاذ أحمد الشايب للكلام في مآخذ الجاحظ فابتدأ القول بكلام الناس في ثقافة الجاحظ واتساعها وثنائهم عليه من هذه الناحية، وقال إن الجاحظ كان واسع المعارف حقاً، قد اتصل بكل النواحي الفكرية والعقلية في أيامه، ولكن ثقافته كانت ثقافة عامة أو قل ثقافة صحفية يتلقفها من دكاكين الوراقين، وقد كان ذلك مذموراً في عصره حتى كانوا يقولون: هو صحنى إذا أرادوا الذم، ونحن نرى أن الجاحظ وإن كان قد ألم بكل شيء ولكنه لم يتبحر في شيء، ثقافته أخذ من كل شيء بطرف كما يقولون

قال الأستاذ: ولقد أخذت أنظر الجاحظ في كل ناحية من نواحي ثقافته فما وجدته إلا على ما وصفت، ثم انتقص كلامه في الحيوان، وأورد في ذلك كلام الباحث الفرنسي كارادفو في كتابه «مفكر الإسلام»، وقد كان غاية ما حاوله

الجاحظ قد نصر النثر على الشعر، فاستخدمه في موضوعات لم تكن له من قبل، وراضه على سبل استعصت على الكتاب السابقين، ثم إن الجاحظ في نثره قد اهتم بالتقريب من الجمهور ما استطاع، فأخذ يطرق الأمور التي تشغل بالهم، ويكتب في المعاني والأغراض التي تحيط بهم في حياتهم الأدبية والاجتماعية والأخلاقية والدينية، ولما قامت الفتنة بين المأمون والأمين واندفع الناس في تيار تلك الفتنة، كان ذلك مما مكن الصلة بين الجاحظ والجمهور، لأنه ابتداءً يؤلف لهم في هذا الذي انصرفت إليه عقولهم، فكتب كتاب الإمامة لهم، فوقع عندهم الموقع الحسن، وقد قرظه المأمون وأتى عليه، وإن تقريب المأمون في الواقع لأدق وصف لكتب الجاحظ وكتاباته.

على أن الجاحظ في تقربه من الجمهور والعامة لم يكن إلا متبعاً لتعاليم المعتزلة الذين أخذوا يعملون لدفع الجمهور للعلم، وتقريب المعارف من نفوسهم بشتى الوسائل الممكنة، ونحن إذا تأملنا كثيراً من كتبه نجده قد اختار موضوعاتها بما يليق بالجمهور ويروج عندهم مثل كتاب البخل.

ولقد كان الجاحظ يدخل على نفوس العامة من ناحية أخرى هي ناحية الدعابة والتفكه، فإنه كان يحفل بذلك ويعتد به، ولست أذكر من فكاهات الجاحظ وأساليبه في ذلك ومبلغ قوته في التصوير، فإن من قرأ منكم شيئاً من كتب الجاحظ فقد أدرك ذلك وتحققه، ثم عرض الأستاذ لكتاب الترييح والتدوير فقال: إنه نمط من فكاهة الجاحظ، ولكنه ملأه بالأسئلة عن أشياء لا تصح، وفيها ما يدور في أذهان العامة والجمهور، ولم يعمل الجاحظ على أن يجيب عنها، وقد قال الجاحظ في آخره: فإن أردت أن تعرف الفاسد والصحيح من هذه الأسئلة فالزم نفسك باب دارى، وقراءة كتي (١) وعرض للجاحظ في موقفه من المرأة فقال: إن الجاحظ

(١) كاتي بالأستاذ الفاضل لم يبين الغرض الذي كتب الجاحظ من أجله كتاب الترييح والتدوير وذلك فهو يؤاخذ بهذه الخرافات التي سردها، والجاحظ إنما قصد إلى ذلك لثبوتهم بصاحبه وهو قد أشار إلى ذلك في أول الكتاب وفي الحيوان، ثم إنه أورد البارة الأخيرة على أنها خطاب للقارىء والجاحظ إنما خاطب بها صاحبه.

(١) المعروف للجاحظ كتاب الجوارى وكتاب القيان

(٢) في الواقع أن الجاحظ قد أثر فيمن جدد من بعده تأثيراً كبيراً بأسلوبه وطريقته وثقافته ولعلنا نستطيع أن نكشف هذه الناحية لقراء الرسالة في بحث شامل

(٣) سمعت الأستاذ ينطق المبرد بالفتح وإنما هو بالكسر حتى كان يقول برد الله من بردى

والأضداد^(١)، وكذلك كلامه عن الحسد وعبارات كثيرة يدركها كل من وقف على كتبه .

اليوم السادس

أما اليوم السادس وهو اليوم الأخير فقد اضطلع به الدكتور طه وحده ، وكان عليه أن يملأ فراغه فذروا القول على كثير من نواحي الجاحظ مع أن موقفه في القول كان عند فكاهة الجاحظ ، فتكلم أولاً عن إطاره الأدبي للجاحظ وما يجب أن يكون له من هذا الإطار ؛ ثم تكلم عن دعاية الجاحظ بما تكلم به الأستاذ إبراهيم مصطفى من قبل ، فقال إن الجاحظ قد نصر النثر على الشعر ، وجعله أقرب وأعذب في نفوس الجمهور والعامّة ، ولقد أشرت إلى ذلك فيما كتبت في مقدمة نقد النثر لقدماء ، وقد قلت إن الجاحظ أثر في ابن الرومي من هذه الناحية ، فهد له طريق التقصّي في المعنى والإسهاب^(٢) ثم تكلم في فكاهة الجاحظ فقال : ولقد كانت الفكاهة من النواحي البارزة عند الجاحظ ، وما كان الرجل يقصد في فكاهته إلى الضحك والاضحاح فحسب ، ولكنه كان يقصد أيضاً إلى التصوير ، ويقصد إلى التهمك والسخر ، ويقصد إلى النقد والحجاء ، وأورد في الاحتجاج لذلك كلامه في نقد الخليل ابن أحمد . ثم ذكر بعض فكاهاته قد ذكر من ذلك قصته مع محمد بن أبي المؤمل البخيل^(٣) ، ثم انتدب الدكتور محمد عوض ليقرا طرفاً من رسالة الجاحظ للمعتصم أو للتوكل بحضه على تعليم أولاده ضروب العلوم وأنواع الأدب ، وفيها كثير من ألوان الدعاية والشعر الفكاهة^(٤)

قال الدكتور : وعندى أن الجاحظ كان كفولتير ، فكما أن فولتير لم يكن عالماً فحسب ولا أدبياً فحسب ولا فيلسوفاً فحسب ولا اجتماعياً فحسب ، وإنما كان له في كل هذا وأكثر من هذا ، فكذلك نجد الجاحظ له في الأدب والفلسفة

(١) الذي نراه أن كتاب المحاسن والأضداد منسوب للجاحظ وما ننقد أن أحدا درس الجاحظ يستطيع أن يقول غير ذلك .

(٢) هذه في الواقع مبالغة لا تبطل بالحقيقة في شيء ، ولست أدري لماذا أثر الجاحظ في ابن الرومي دون غيره من الشعراء وفيهم من كان يشاره ويقاربه أكثر من ابن الرومي .

(٣) هي مذكورة في البغلاء ص ٧٦ وما بعدها .

(٤) نجد هذه الرسالة كاملة في جمع الجواهر للحصري ص ١٦٦ وما بعدها .

الأستاذ أن ينتقص جهد الجاحظ وآراه في الحيوان والنقد والبلاغة ، وفي كل ناحية من النواحي التي كتب فيها . وقال إنه كان ينتهب آراء غيره ، وكان يخلط بين النقد والبلاغة ، على أن هناك فرقاً بين الناحيتين ، ولقد كان الجاحظ في مؤلفاته يثير كثيراً من المشاكل ويمس الأمور المعضلة القائمة في عصره فيستطيع أن يشخصها ويكيفها ويلقي فيها الأسئلة القوية ، ولكنه كان يتركها عند هذا الحد ، فلا علاج يشق ، ولا جواب ينتهي بالقارىء إلى رأى حاسم ، ولذلك كان من السهل على الجاحظ أن يؤلف في الشيء وضده وأن يناقض نفسه بنفسه ما دام هو يقف في ذلك عند الآراء الشائعة والمسائل الذائعة في كل فرقة . ولقد روى أن أحد الأمراء أرسل إلى الجاحظ يطلب منه أن يحتج له في رأى ، فكتب له الجاحظ بما طلب ، فعاد الأمير يقول له : إن الخادم قد غلط في تبليغ الرسالة إليك وإنما أريد أن تكتب في نقیض هذا الرأى ، فلم يتورع الجاحظ عن أن يكتب له .

قال الأستاذ : وقد كان الجاحظ من المتكلمين ، وكان الجدل والكلام في عصره على غاية ما يكون من الشدة ، ولكنى لم أعرفه قد كتب كتاباً في أصول الجدل أو ألف في علم الكلام كما كانت تقتضيه وظيفته ويقتضيه عصره^(١) ، ثم انتقد الجاحظ في تحقيقه ، وأورد كلاماً للسعودي في ذلك إذ يقول : زعم الجاحظ أن نهر مكران الذي هو نهر السند من النيل . واستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه ، وهذا تحقيق باطل ناقص ، لأن الجاحظ أقامه على قياس منطقي نظري فاسد النتيجة ولو طارعتنا الجاحظ في قياسه لكان كل نهر فيه التماسيح هو من النيل ، لأن النيل فيه التماسيح وكان من رأى الأستاذ أن غاية ما للجاحظ هو الأسلوب

ففيه براعته وشخصيته ومميزاته ... ثم انتقده بالتكرار الملل ، وقال إن الجاحظ كان يستعمل عبارات ثابتة يكررها كثيراً حتى كأنها كلشيات^(٢) ، فهو ينقلها من كتاب إلى كتاب ومن موضع إلى موضع ، ومثل لذلك بكلامه في اصطناع الكتب إذ أورده في كتابه الحيوان ، وأعاده في المحاسن

(١) ليس هذا على ما نرى مما يباب به الجاحظ ، لأن هناك فرقاً بين المتكلم والعالم بالكلام الذي من مهمته أن يؤلف في الكلام ، وهل لنا أن ننبأ المتنبي بأنه لم يكتب في الشعر وهو شاعر

(٢) هي المعروفة في العربية بالرواسم . . .

العاطفة^(١)

وهي نعمة من الشعر الوصفي الرائع المتكرر في أغراضه ومعانيه

للشاعر العالم الأستاذ أحمد الزين

خَلَجَاتٌ تهفو بقلب الشَّجِيءِ هي سرُّ الحياة في كلِّ شيءٍ
هي والروح في فؤادك صِنُوا نِ وفيض من عالم عُلُوِّ—
هي ذكرى بعد المشيب وسلوى في اكتهالٍ وصبوة للفتى
ومنى للغلام يهفو إليها وحنان يحوط مهد الصبي
رافقت رحلة الحياة وأخت نضو أسفارها إخاء الوفي
هي للقلب نعمة أو شقاء كم سعيد بها وكَم من شقى
رُبَّ من يهر العيون رؤاء ناء من همها بداء خنى
ظاهر منه يخدع العين عمّا ضَمَن القلب من ضنى مطوى
من غرام مبرح أو فراق أو منى عُوْجِلَتْ بصوت النعى
باسم بين صحبه فإذا يخلو بكى شجوة بدمع شجي—
وأخي منظر تراه فتلبو العين عن منظر ريث زرى
يصر الناس منه ما يبعث الرحمة في قلب شاني وصغى
ما دَرَوْا أنه على البؤس يحيا بفؤادٍ خالٍ وبال رخى
ملأت نفسه السعادة حتى لا يبالى بمنظر أو يرى
نَزَعَاتُ النفوس في كلِّ قلب ميَّزَت بين ساخطٍ ورضى
أسعدت آدمًا وحواء حيناً سم أشقتهما بإفك القوي
ورث النسل عن أبيه ميؤلا لم تدعه في ظل عيش هنى
ونفوسا حيرت قلبها الأهواء مفتونة بكل طلى
فهى بين الآمال تمرح نشوى ثم تصحو بالأس من كل شى—
إن للعاطفات حُكماً قويا ظلُّه عاصف بكل قوى
كم أذلت جبار قوم، وغلت من طليق، وأسست من أبى
كم تورى جهادها في قديم الدهر نُضج لعالم ونبي
جاهداها بالعقل حيناً وحيناً سخرًا بعضها لقتل البقى
وهي تقوى مع الجهاد فويل للورى من جهادها الأبدى

(١) تشمل المواطن في معنى ميول النفس وتزاتها استعمالاً شائعاً في كلام أهل العصر وهي المراد وصفها في هذه القصيدة .

والاجتماع الى آخر ما هو معروف عنه ؛ وكما أن فولتير لم يكن في سخره وتهكمه يقف عند حد الفكاهة ولكنه كان يقصد الى كثير من الأغراض الشريفة ، فكذلك كان الجاحظ ، فالمشابهة قوية بين الرجلين^(١)

ثم قال : فالجاحظ لاشك من الشخصيات الكبيرة ، وأهل العبقريات النادرة ، وهو حري بالذكر والتكريم ، ونحن اذ نقوم له بهذا الأسبوع بمناسبة مرور أحد عشر قرناً على وفاته ، فإنما نحن نؤدى له بعض الواجب ، ولا أكنتمكم بإسادة اذا قلت لكم اننا في حاجة كبيرة الى دراسة الجاحظ في كتبه وآثاره دراسة وافية كما تجب الدراسة ، فانتا مع الاسف لا نعرف عنه الا ما هو شائع في المجالس وما يسقط اليها من نوادره . وكلية الآداب اذا كانت قد فكرت في اقامة هذا الأسبوع فإنها أرادت أن تلفت الأذهان للعناية بالجاحظ ، وأن تنبه على وجوب دراسة تلك العبقرية الواسعة الشاملة

هكذا قال الدكتور الفاضل ، ولست أدري اذا كانت كلية الآداب لا تعلم عن الجاحظ الا ما هو شائع في المجالس وما يسقط من النوادر ، واذا كانت لم تقصد الا لفت الأذهان ، فن الذى يكون عنده العلم بالجاحظ ، ومن الذى سيؤدى عنها هذا الحق للنقد والأدب م . ف . ع

(١) لعل أستاذنا الزيات هو أول من نبه على انشبه بين الجاحظ وفولتير وإنه يقول في كتابه : إن الجاحظ هو فولتير الشرق .

لطلب الباطل لوريا :

البيان التبييني

للاستاذين محمد برانق وحسن علوان

يشتمل هذا الكتاب على ذكر القواعد موجزة مع تطبيقات وافية في « البيان والبدیع » وتمرنات طامة مرتبة على حسب هذا المنهج وفي اخره مفتاح عن الاسئلة مع ترجمان لمعظم الأعلام التي وردت فيه

الثنى
مطبوعة المعارف ومكتبتها بمصر